بسم الله الرحمن الرحيم

في قصَص الأوَّلين سلوةٌ، ومِن سِيَرِ الصالحين تأتي العظةُ والعبرة، ومع أخبارِ السلفِ يَحلو الحديث ويطيبُ المجلس ، فلعلنا نقف اليوم مع قصةٍ رائعة، فيها من العبر والعظات، {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[الأعراف: ١٧٦] سنتكلم عن قصة نهدف من خلالها إيحاء بعض المعاني التي ماتت عند كثير من المسلمين اليوم، نتعلم منها مبادئ علها تحيي فينا باعث إحياء حضارة وقيم أمتنا من جديد، قصة فيها شرح عملي لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، الذي جاء عن أبي قَتادةَ وأبي الدَّهْماءِ قالا: كانا نكثِر السَّفَرَ نَحْوَ هذا البَيْتِ، فأَتَيْنا على رَجُلٍ مِن أهْلِ البادِيةِ، فقالَ البَدَويُّ: أخَذَ بيَدي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فجَعَلَ يُعَلِّمُني ممَّا عَلَّمَه اللهُ تَبارَكَ وتَعالى، وقالَ: [إنَّك لن تَدَعَ شَيئًا اتِّقاءَ اللهِ جَلَّ وعَزَّ إلَّا أعْطاك اللهُ خَيْرًا مِنه]) قصة عاينها الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى المؤرخ الكبير، يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى: وجدتُ هذه القصة مخطوطة في مكتبة دمشق مروية عن الطبري بالسند المتصل .

قصة جرت في أرض مكة المكرمة في رمضان سنة (٢٤٠هـ) لما كانت صفوف المؤمنين تدور حول الكعبة بهذا الشهر الكريم، وسار أهل مكة للحرم ، ولم يبق في داره إلا شيخ في السادسة والثمانين، وقف يصلي ولم يستطيع القيام من الجوع، فقد صام بلا سحور، ونام ليلته بلاء عشاء، لم يكن يفكر في نفسه فقد طال عهده بالفقر حتى ألفه، إنما يفكر في بطون جائعة حوله، هو كاسبها ومعيلها...لكنه كان موقناً أن الله هو الذي قسم الأرزاق، فأعطى ومنع لحكمة ..

جاءته امرأة ملتحفة بخرقة قذرة فقالت: يا أبا غياث، هذا ثالث يوم لم نذق فيه طعاماً، فإذا صبرتَ وصبرتُ أنا فإن البنات والعجوز لا يقدرون على الجوع، فاستعن بالله واخرج والتمس لنا شيئا لعل الله يرزقك بدراهم لفطورنا قال: أفعل إن شاء الله....

فخرج ضحى يجول في أزقة مكة، فلم يلق في تطوافه أحداً، فسار حتى خارت قواه، وأحس بجوفه يلتهب من العطش، فألقى بنفسه في ظل جدار، وكان من أكبر أمانيه أن يدركه الأجل فيموت، ليتخلص من هذا الشقاء، وجعل ينكت التراب بيده، فلمس بيده شيئاً ليناً، بداية ظنها حية، لكنها ساكنة فتعجب منها، ولمسها برجله فلم تتحرك، فإذا الذي رآه حزاماً وليس حية فشدّه فإذا هو(هِمْيان) – وهو الشيء الذي يشد

على الوسط وتحمل به النقود- فيه ذهب، فأحس بأن جوعه وعطشه قد ذهبا، وكأن القوة قد صبت في أعصابه...وتصور أنه سيحمل إلى نسائه الشبع والدعة والراحة، وجعل يفكر فيما يشتريه لهن، حتى كاد يفقد عقله...

ثم ناداه صوت دينه وأمانته قائلاً: إن هذا المال ليس لك، إنما هي لقطة، ولقطة الحرم لا يجوز أخذها إلا لمن يعرّفها...وود لو أعاد الهميان إلى مكانه، ولم يكن قد ابتلى بهذه البلية، وسمع صوتاً يهتف به من داخله أن خذها فهي رزق ساقه الله إليك ادفع به الموت عن بناتك اللائي أضناهن الموت...ثم تردها إذا تيسرت أمورك، لكن علا صوت دينه اصبر ولا تخن أمانتك، ولا تعصِ ربك، فعقد العزم على الصبر، وذهب إلى داره يخبأ الهميان....

ودخل الدار خفية فرأته امرأته فقالت: ما جاء بك؟ قال: لا شيء. وأحب أن يكتمها الخبر. قالت: بلى والله إن معك شيئاً فما هو؟ فقص عليها القصة، وكانت امرأة تقية دينة، ولكنها أضعف إرادة، فقالت: افتحه وخذ منه دنانير واشتر لنا شيئاً فإننا مضطرون والمضطر يأكل الميتة...قال: لا والله ولئن مسسته أو أخبرت أحداً فأنت طالق...

ومشى إلى الحرم، فسمع رجلا خراسانياً ينادي من وجد هميانا فيه ألف دينار فرده علي، أضعف الله له الثواب...فقام إليه أبو غياث فقال: يا خراساني بلدنا فقير أهله، شديد حاله، ولعله يقع في يد رجل يرغب فيما تبذله له فيأخذه ويرده عليك...

قال الخراساني: كم تريد؟ قال: العشر، مئة دينار...قال: لانفعل ولكن نحيله على الله تعالى.

وافترقا...وسمع الحوار شاب طبري طالب علم فقال: وقع في نفسي أن الشيخ هو الواجد للهميان فاتبعته....فنزل إلى دار مزرية الباب والمدخل، فسمعته يقول: يا لبابة. قالت: لبيك أبا غياث...قال: وجدت صاحب الهميان ينادي عليه فقلت له: اجعل لواجده شيئاً، فرفض...فقالت له: نقاسي الفقر معك منذ خميسين عاماً سنة، ولك أربع بنات وأختان وأنا وأمي وأنت تاسع القوم!! يا أبا غيث إن الله أكرم من أن يعاقب رجلاً يحي هذه الأنفس... إنك لم تسرقه ولم تغصبه ولكن الله هو الذي وضعه بين يديك، فلا ترفض نعمة أنعم الله بها عليك، إن الله سيسألك عن هؤلاء النسوة

قال الطبري: ونظرت في وجه الشيخ فأحسست مما بدا عليه بمرارة الواقع، فسال دمعه على شيبته، ورأتِ المرأة ذلك فازداد طمعها فيه...ثم رأته يعبس وتبدو عليه الصرامة وتذكر أنه صبر خمسين سنة فما كان

ليضيع ذلك كله في لذة يوم، وذكرها أنه على شفير القبر وأنه سيلقى الله، فما كان ليلقاه خائنا أمانته، أما عياله فلهم الله والله أرأف بهم...فشد من عزمه وصاح بها: **لست أفعل، ولا أحرق حشاشتي بعد ست وثمانين سنة.**

قال الطبري: وأذن المغرب، وقعد الشيخ ونساؤه على كسيرات وتمرات التقطها لهم....

فلما كان من الغد سمعت الخراساني يقول: معاشر العمّار من حاضر وباد، من وجد هميانا فيه ألف دينار ورده أضعف الله له الثواب...

فقام الشيخ إليه، فقال يا خراساني قد قلت لك بالأمس ونصحتك، فامتنعت....فاجعل له عشرة دنانير منها فيرده عليك ويكون له في العشرة ستر وصيانة... فقال الخراساني: لا نفعل ولكن نحيله إلى الله تعالى ثم افترقا.

فلما كان اليوم الذي بعده نادي الخراساني، فقام إليه الشيخ فقال يا خراساني: أعطه ديناراً واحداً عشر، يشتري بنصف دينار قربة يسقي عليها المقيمين بمكة بالأجرة وبالنصف الآخر شاة يتخذها لعياله...فقال الخراساني: لا نفعل ولكن نحيله إلى الله عز وجل...

فانقطع آخر خيط من حبال آماله...وتخيل حال بناته وأختيه وزوجته وأمها...وأن هذا الخراساني منعهم ديناراً واحداً من ألف يدفعون به الجوع والعري...فحدثته نفسه بأن يمسكها، أو أن يدفعها له ناقصة ديناراً، ولكنه ذكر الله والحساب فاستعاذ بالله من هذا الخاطر، فلن يشتر الشقاء الدائم باللذة العاجلة، وتذكر أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فقال للخراساني: تعال خذ هميانك...قال الطبري: فمشيا وتبعتهما، حتى بلغا الدار فدخل الشيخ فما لبث أن خرج وقال ادخل يا خراساني، فدخل ودخلت فأخرج الهميان، وقال: هذا هميانك؟ فنظر إليه وقال: هذا هميانى... ثم صب المال في حجره وقلبه مراراً، ثم قال: هذه دنانيري...وكانت لبابة والبنات ينظرون من شق الباب إلى الذهب..

وأعاد الرجل الذهب إلى الهميان وشده، ووضعه على كتفه وخرج ولم ينظر في وجه الشيخ، ولم يلق في أذنه كلمة شكر...وأحست لبابة كأنه قد اختطف وحيدها، وشُدِه البنات، ولبثن مفتوحات الأشداق دهشة وذهولاً...

فلما ابتعد ويأسن منه سقطن على وجوههن من الجوع والضعف واليأس....ثم سمع الشيخ حركة، فنظر فإذا الخراساني قد رجع فرفع رأسه ينظر إليه ماذا يريد، وهو الذي منعه ديناراً واحداً يحي هذه الأنفس

المشرفة على الموت.

وكان أبو غياث رجلاً سمحاً، وسأله عما رجع به؟ فقال الخراساني: يا شيخ مات أبي وترك ثلاثة ألاف دينار، فقال: أخرج ثلثها فضعها في أحق الناس عندك، فأخرجت ثلثها، ووالله ما رأيت منذ خرجت من خراسان إلى الآن أحقَ منك، فخده بارك الله لك فيه فوضعه وولى...

قال الطبري: فمشيت فإذا الشيخ يسرع خلفي يدعوني فرجعت إليه فقال لي: لقد رأيتك تتبعنا من أول يوم، وعلمت أنك عرفت خبرنا، وقد سمعت أنه إذا آتاكم الله هدية بلا مسألة ولا استشراف نفس فاقبلوها ولا تردوها، فتردوها على الله ، فهي هدية من الله والهدية لمن حضر)) فسر معي، فسرت معه، فقال لي إنك مبارك، ما رأيت هذا المال قط ولا أملته قط، أترى هذا القميص؟ إني والله لأقوم سحراً فأصلي الغداة فيه، ثم أنزعه فتصلي فيه زوجتي وأمها، وبناتي، وأختاي، واحدة بعد واحدة ثم ألبسه وأمضي أكتسب إلى ما بين الظهر والعصر ثم أعود بما فتح الله عليّ من أقط وتمر وكسيرات كعك فنتداول الصلاة فيه...

ثم نادى: يا لبابة يا فلانة وفلانة، حتى جئن جميعاً فأقعدني عن شماله وحلّ الهِميان وقال: ابسطوا حجوركم، فبسطت حجري، وما كان لواحدة منهن حجر تبسطه فمددن أيديهن، وأقبل يعد ديناراً ديناراً حتى إذا بلغ العاشر قال، وهذا لك، حتى فرغ الهميان منهن مائة دينار ونالني مائة، ثم قال لامرأته: أريت يا لبابة إن الله لا يضيع أجر الصابرين، إن الله أرحم الراحمين، يا لبابة، لقد منعنا أنفسنا ديناراً حراماً، فجاءنا الله بألف حلال، وأكل الشيخ لقيمات، ثم قام ليخرج، فقالت امرأته إلى أين يا أبا غياث؟ قال: أفتش، فلعل في الناس فقيراً صائما لا يجد ما يفطر عليه ، فنشركه في طعامنا

قال الإمام أبو جعفر الطبري: وقد نفعني الله بهذه الدنانير تقويت بها، وكتبت العلم سنين، وعدت إلى مكة بعد ست عشرة سنة فوجدت البنات ملكات تحت ملوك، وعلمت بأن الشيخ قد توفي بعد ما فارقته بشهور، فكنت أنزل على أزواجهن وأولادهن، فيكرموني غاية الإكرام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين